العنوان:	سيرة و أعمال أبي الحسن الأشعري
المصدر:	مجلة الإبانة
الناشر:	الرابطة المحمدية للعلماء - مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية
المؤلف الرئيسي:	سيغوبيا، كارلوس أ.
مؤلفين آخرين:	أشمل، محمد بلال(مترجم)
المجلد/العدد:	ع 1
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2013
الشهر:	يونيو / رجب
الصفحات:	279 - 301
DOI:	10.12816/0002398
رقم MD:	468985
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	العلماء المسلمون ، أبو الحسن الأشعري ، علي بن إسماعيل بن إسحاق ، ت. 324 هـ، التراجم ، الإنتاج الفكري
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/468985



سيرة وأعمال أبي الحسن الأشعري
كارلوس أ. سيغوبيا

ترجمة: ذ. محمد بلال أشمل[1]

كلمة تمهيدية

هذه ترجمة لمقالة الأستاذ "كارلوس أليكس سيغوبيا" بعنوان "سيرة وأعمال أبي الحسن الأشعري" المنشورة في العدد الثاني عشر من "المجلة الإسبانية للفلسفة الوسيطية". وأما صاحبها، فهو من المتخصصين في الدراسة المقارنة لأديان الكتب السماوية، مع عناية خاصة بالدراسات الإسلامية؛ إذ وضع في هذا الشّعب العلمي والفكري، طائفة من المؤلفات تعتبر قطعة ثمينة فيما نسميه بـــ"الإسلاميات الإسبانية" مثل كتابه المتميّز عن "صدر الدين الشيرازي: "الفلسفة الإسلامية ومشكلة الوجود" (غرناطة، 2005). كما نشر وترجم نصوصا مختارة للفلاسفة المسلمين كما صنع مع "إلهيات ابن سينا" (مدريد، 2006) استئنافا للتقليد الذي وضعه آسين بالاسيوس، وكارلوس كيروز، وسار عليه كروث إيرنانديث، ورامون غيريرو، وبويج مونطادا، وخواكين لومبا، وأندريس لوركا، وغيرهم. كما كان أول من ترجم إلى القشتالية كتاب "اللّمع في الرد على أهل الزيغ والبدع" (مدريد، 2006) لأبي الحسن الأشعري، ووضع عنه دراسة وافية عزّز به متن "الأشعريات الإسبانية". وفضلا عن ذلك، حرّر العديد من المقالات والدراسات حول قضايا الفكر والعقيدة الإسلاميين مثل دراسته عن "الذات والآخر" (مجلة ليميتس، عدد

1- أستاذ باحث في الفلسفة/ تطوان – المغرب.

15، 2007)، و"ابن سينا في الشرق" (مجلة الفلسفة، العدد 20، 1998) و"الفلسفة والدين في الإسلام: حول ابن رشد" (حوليات تاريخ الفلسفة الإسلامية، العدد 16، 1999)، وأشرف على دروس صيفية لجامعة قشتالة-لمانشا حول "الحوار بين أديان الكتب السماوية"، وساهم في إلقاء دروس ومحاضرات في جامعات أوكسفود، وابورطو، وإشبيلية، وباريس، وبلاد الباسك، وجامعتي المستقلة والكومبلوطينسي بمدريد، إلى جانب عمله الأكاديمي كأستاذ للدراسات الدينية المقارنة بكرسي "فريديريكو مايور للسلام" في جامعة "كاميلو ثيلا" المجريطية.

أما هذه المقالة، فهي كما يظهر من عنوانها، تدور حول "سيرة وأعمال أبي الحسن الأشعري"، منظور إليها من منطلق الناقد لمختلف الآراء، وبحس الباحث المقلب لجميع الاحتمالات، وببصيرة الحكيم الذي ينزل الرجال منازلهم. وحسبي أن أقول في حقها كلمات ثلاث: الأولى أنها تعالج السيرة والمتن الأشعريين معالجة نقدية، وليست عقدية، وفي ذلك يتزكى تقديرها لفكر ومكانة صاحب "الإبانة" في معمار الفكر الإسلامي من خارج التداول الفكري والعقدي الإسلامي؛ والثانية أنها تنبّه على ضرورة العناية بهذا المتن، والتعجيل بإعطائه ما يستحق من اهتمام في البلاد الإسبانية، وعبرها إلى البلاد الناطقة بلسانها، وفي ذلك مناسبة طيبة ليعظم أملنا في تدشين القول العلمي في "الأشعريات الإسبانية" -مثلما هو عظيم في شأن "المالكيات الإسبانية"-؛ والثالثة أنها تدعونا بغير قصد إلى توسيع أفق الدراسات الأشعرية في بلادنا حتى تشمل سائر المكتوب باللغات الأوروبية من فرنسية وإسبانية وإنجليزية وإيطالية وألمانية، وفي ذلك ما يمنع الجمود على تقليد لساني واحد أوحد في تناول الفكر الأشعري نصوصا وقضايا وإشكاليات.

ونحبّ في نهاية هذه الكلمة التمهيدية، أن نعلن عظيم امتناننا لصاحب "سيرة وأعمال أبي الحسن الأشعري"؛ حين أذن لنا بترجمتها إلى اللسان العربي، وجميل اعتزازنا بثقته حين صادق على صنعتنا الترجمية لمتنها، فله جميل الامتنان، وعظيم العرفان.

يعد أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (حوالي: 260/873-324/935) بلا ريب، أحد المفكرين الممتازين في الإسلام السني، الذي هو من جهة أخرى، الإسلام ذي الغالبية العظمى؛ نظرا للتأثير العظيم الذي أحدثه عمله الفكري خلال ما ينيف على عشرة قرون في مختلف المجالات، وبصفة أساسية في علم الكلام والروحانيات.

انتمى خلال شبابه إلى الحركة الاعتزالية؛ التي مثلت من جانبها، محاولة المسلمين الأولى لتطوير فكر إسلامي في كنف المقولات المتلقاة عن الفلسفة الإغريقية التي ترجمت نصوصها يومئذ إلى اللسان العربي، دون الخروج عن الأفق المفتوح لمعنى الوحي القرآني والسني أو التراث النبوي اللذين شكلا في العمق، المرجعية النهائية لكل فكر إسلامي أصيل. إن الفلسفة أو الحكمة ذات المنحى الإغريقي التي تشكلت في الإسلام، ظهرت لاحقا على خطى علم الكلام أو اللاهوت المعتزلي، ولكن بغاية التماس موطئ قدم داخل العالم الإسلامي على هامش القرآن والسنة، على هدي الفلسفة الإغريقية، أرسطية كانت أو أفلاطونية محدثة. من هنا اعتبر علم الكلام، وبخاصة المعتزلي منه، هي الفلسفة الإسلامية الحقة، كما ذهب إلى ذلك ل. غارديه وم.م. قنواتي، وليست الفلسفة التي أكثر ما ينبغي اعتبارها فلسفة إغريقية تم وضعها وتطويرها في دار الإسلام.

وقد انتهى الكلام المعتزلي أيضا إلى الابتعاد عن القرآن والسنة، ومال إلى نوع من التفكير يمكن القول -إذا صح التعبير- أنه كان أكثر حرية، الأمر الذي كرهه بطبيعة الحال من كانوا غير مستعدين للتخلّي عنهما معا؛ إذ لا يجب أن ننسى أننا نوجد في فترة تشكّل الفكر الإسلامي، ومن ثم، في فترة بحث هذا الفكر عن طابعه المميز. كما لا ينبغي أن نذهل عن التزامات المعتزلة تجاه سلطة الخلافة التي كانت تعاديهم في البداية، ثم صارت تحمل الناس على اتباع عقائدهم، ولا تسمح لهم بوضعها موضع ريب؛ حتى إنها اضطهدت وسجنت من كانوا على خلاف معها.

كل ذلك أجّج قلق المعارضين للمعتزلة، مما أفضى إلى ظهور حركة معارضة للمعتزلة، وبخاصة في العراق، موطن الخلافة، فوقفت ضد تأويلاتهم المغرقة في التجريد، ودعت إلى العودة إلى القرآن والسنة، وإلى الأخذ بتأويل أكثر حرفية. وكان أحمد بن حنبل (المتوفى عام: 855/241) رأس هذه الحركة.

وعقب أزمة فكرية حرّكها بوجه خاص خلافه الواضح مع أفكار ومواقف أستاذه الجبائي (المتوفى [عام]: 915/303)، ترك الأشعري -وأصله من البصرة جنوب العراق- الحركة المعتزلية، وهو يومئذ ابن أربعين سنة، ومال إلى الموقف الذي كان يدافع عنه أتباع ابن حنبل، وقد صاروا أقوياء حينها في بغداد، وإن لم يفعل ذلك بكيفية نقدية على الوجه الكامل. ومع مرور الوقت، صار يبتعد عن الحنابلة أنفسهم ممن لم يأخذوا بأفكاره قط، وشقّ من ثم، "طريقا وسطا" بين موقف الحرفيين (الذين كانوا يقولون بعدم حاجة الإسلام إلى النظر)، والموقف العقلاني للمعتزلة (الذين كانوا -على العكس من ذلك-، يقولون إن النظر يوشك أن يستغني عن الإسلام). وهذا "الطريق الوسط" الذي ليس عبثا ينطوي على كل المكونات التقليدية للفكر الإسلامي التراثي، كما هو الشأن مثلا بالنسبة للذرية، والحدوث، والجدل بين الحرية والجبر المؤسس للفعل البشري، والطابع المزدوج للقرآن من حيث هو مخلوق وغير مخلوق، كل ذلك أدى إلى نشأة المذهب الرسمي للإسلام السني على مر العصور (بمواجهة ما كان قد أخذ به الإسلام الشيعي في المقابل؛ من حيث تأويل الوحي تأويلا عرفانيا وبكيفية ما، تأويلا فلسفيا).

من هنا أهمية عمل الأشعري الذي كان أول من بوّب تبويبا منظما، مختلف التيارات الفكريـــة للإسلام في كتابـــه مقالات الإسلاميين؛ مفتتحا بذلك نمطا من البحث المقارن -ومن باب أولى عملا أدبيا عظيما -سيكون له شأنه في دار الإسلام مع توالي الأيام. ومن سوء الحظ، فمن بين ما يقرب من مائة مؤلف ينسبه إليه تلاميذه ومترجموه، لم تصل إلينا منها سوى ستة مؤلفات؛ أهمها:

- **كتاب اللّمع** في الرد على أهل الزيغ والبدع أو

Destellos de la polémica contra los heretedoxos e inovadores en materia de fe.

(حرفيا: ضد من زاغ وابتدع) والمعروف بكتاب اللّمع. ينطوي هذا الكتاب على نضج فكري لصاحبه من حيث كونه، في الحقيقة، أكثر من نص سجالي. لقد تم نشره وترجمته لأول مرة إلى الانجليزية من لدن ر. ج. ماكارثي عام 1953 إلى جانب رسالة أخرى للأشعري أكثر اختصارا عنوانها: "رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام" أو:

Tratado sobre la defensa de la teología

(وبصورة حرفية أكثر: حول الاستحسان الذي تستحقه دراسة علم الكلام) المعروفة أيضا تحت عنوان الرسالة في "الحث على البحث"

Incitación a la investigación teológica

حيث يناقش واضعها بصورة موفقة، الأطروحات الحرفية الأكثر غلوا؛ موضحا الشرعية التي يكتسيها الفكر والنظر النقدي من وجهة نظر السنة النبوية والقرآن المطبقين على مجال الإيمان والعقائد الإسلامية.

لا نعرف عن حياة الأشعري إلا النزر اليسير؛ فقد ولد في البصرة حوالي العام 873/260، أي في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، وسط أسرة مرموقة. كانت البصرة يومئذ مدينة ثقافية عظيمة؛ فواحدة من فرعي المدرسة المعتزلية نشأت فيها منذ أواسط القرن II/VIII فيما نشأ الفرع الثاني في بغداد. ولهذه المدرسة انتمى في مرحلتهما الأولى- كما هو مجمع عليه بين المؤرخين -المتكلمان أبو الهذيل (متوفى حوالي 841/227) والنظّام (المتوفى عام 836/221). وخلال حياة الأشعري كان أبو علي الجبائي رأس هذه المدرسة وهو الذي حضر أبو الحسن دروسه لسنوات وهو بعد شاب،

وصار من ثم، تلميذا له. غير أنه في يوم من الأيام، ولأسباب نجهلها على وجه الدقة، كفّ عن أن يكون كذلك.

هناك العديد من الروايات المتداخلة حد اللّبس -قد تكون حقيقية أو موضوعة- تعكس أسباب ومدى هذا التحول في الموقف. وحسب إحدى تلك الروايات، فإن الأشعري قد يكون صادف مسائل نظرية عجز أستاذه عن حلّها. وفي ليلة من اللّيالي، استخار الأشعري ربّه، ورأى النبي في حلمه، فأشار عليه بالتمسك بالسنة في طلب الحق، أي عدم الوثوق بصورة قطعية في العقل على خلاف المعتزلة. ومنذئذ، اتخذ الأشعري لنفسه مذهبا مختلفا بصورة جذرية عن مذهب أستاذه. وبعد أن عرض مسائل الكلام على القرآن والسنة، احتفظ من الأول فقط بما لا يتعارض مع هذين الأخيرين.

وحسب رواية أخرى، فإن هذا التحول قد تكون أثمرته خمسة عشرة يوما من العزلة؛ وفي هذه الحالة، لم يلجأ إلى الاستعانة بأية وساطة [أو استخارة].

وفي أعقاب هذا الوقت من التأمل، ربما يكون الأشعري قد لجأ إلى المسجد الجامع في البصرة يوم الجمعة، وهناك تبرأ علنا من عقائده السابقة.

هناك روايتان تؤكدان الأمر الأخير، لكنهما لا تبرهنان على سبب معين يمكّننا من تفسير موقف الأشعري الذي -بحسب إحدى الروايتين-، لم يعلن فقط تركه للمذهب المعتزلي، بل أعلن أنه لم يكن مسلما حقيقيا حتى ذلك اليوم[!!].

هناك رواية خامسة تتحدث عن ثلاث رؤى رآها الأشعري في منامه عقب مدة طويلة من النضج الشخصي؛ وفيها يرد أيضا موضوع اللجوء إلى المسجد. وينضاف إلى الرؤيتين الأولى والثانية ...رؤية ثالثة رأى فيها كيف أن النبي [ﷺ] حثّه على عدم ترك علم الكلام بالرغم من كل شيء. فيما هناك رؤية أخيرة تسعى إلى توسيع الرؤى السابقة حيث تتحدث عن حوار حقيقي جرى بين الأشعري وبين النبي [ﷺ].

وأيّا ما كان الأمر، فهناك مسألة واضحة فيما لو صدّقنا مجموع تلك الروايات؛ (إذ سيكون من التهور ومناسبةً للاستشكال تصديق واحدة منها، أخذا بعين الاعتبار أن لا شيء يضمن صدق الواحدة دون الأخرى، كما لا يوجد ما يمنع من الشك في جميعها دفعة واحدة)، وهو أن الأشعري ترك الاعتزال الذي تلقى فيه تكوينـــه المذهبي، لأن هذا -على الأرجح- وضع في رأيه كثيرا من المسائل لم يستطع حلها. وربما بعد وقت طويل أو قصير أمضاه في التأمل، حصلت له واحدة أو العديد من الرؤى التي أكدت حدسه، وهكذا دخل المسجد الجامع في البصرة ذات جمعة، وأعلن هناك تركه للكلام المعتزلي دون أن يعني ذلك أن يصير إلى رفض خالص وبسيط لعلم الكلام.

هل توجد أسباب أخرى حملت الأشعري على تغيير موقفه؟ من المحتمل أن يكون ذلك كذلك. كل شيء يشير إلى أن تحوّله [عن الاعتزال] حصل عام 912/300 بين 877/264 و 891/278، أي السنوات التي تؤرخ لبدايات الثورة القرمطية -ذات الأصل الشيعي- وبخاصة بدءا من عام 900/287 حيث أحدثت وضعا سياسيا مضطربا كانت له آثار خطيرة في العراق. إن المشاكل الكثيرة التي سببتها هذه الثورة (مواجهة قوات الخلافة، ووضع العراقيل أمام الحجيج إلى مكة، والتوتر الاجتماعي...إلخ) أثمرت رفضا شعبيا انتهى هو الآخر بجرف بعض من أخذوا بالتفلسف والهوى القرمطي مثل الصوفي الحلاّج (ت.922/309). وليس من المستبعد أن ذلك حَمَلَ الأشعري على تفحص نقدي لتكوينه الكلامي سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أن أستاذه الجبائي سافر إلى الأهواز رفقة الشيعي ابن نوبخت لرؤية الحلاج.

لقد نبّه الأشعري، في سياق كل ذلك، على المخاطر التي كانت تحيق بالجماعة الإسلامية أو الأمـــة فيما يتصل بالعقيدة. وفضلا عن ذلك، عاين صلة رؤوس المعتزلـــة -ومنهم أستاذه القريب منه- ببعض الجماعات أو الشخصيات التي كانت تُرمى بالبدعة.

وكيفما كان الأمر، فهناك العديد من الأسباب الممكنة التي وضعها M. Allard انطلاقا من الأعمال الممتازة للويس ماسينيون L. Massignon والتي تجاوز في احتماليتها النظريات التي تسعى إلى تفسير تحول موقف الأشعري، سواء تلك التي: 1- ترده إلى منافسته لأبي هاشم الجبائي (ت.933/321) -المتكلم المعتزلي نجل [أبي علي] الجبائي-، أو 2- إلى رغبته في تحصيل قدر أعظم من الاعتراف الأدبي والاجتماعي وسط الجماعة.

أولى هذه النظريات هي التي دافع عنها م. واط Watt، وهي لا تتجاوز حدود استنتاج وجود مفترض لتنافس بين الرجلين انطلاقا من قرينة أن أفكار ومؤلفات أبي هاشم الجبائي غير واردة في "مقالات [الإسلاميين]" للأشعري (مما يقتضي، والحق يقال، استخلاص الكثير من النتائج).

فيما النظرية الثانية، تنطوي على قدر من الطرافة، ولا تقوم على أي دليل ملموس في مختلف النصوص، ولكي تستقيم، عليها البرهنة فيفترض أن الأشعري لم يكن ينعم يومئذ -بل وقبل الرسوخ في تحصيل علم الكلام على يد أبي علي الجبائي- بمكانة اجتماعية مرموقة، الأمر الذي يدحضه على العكس من ذلك، الخبر الذي يتصل بنسبه، وبممتلكات عائلته كما هو وارد لدى الخطيب البغدادي الذي نعتبر شهادته في هذا المقام ذات قيمة عظيمة. وبعد تحوله [عن الاعتزال]، سافر الأشعري إلى بغداد، وهناك اتصل بالأوساط الحنبلية التي كان رأسها يومئذ أبو محمد الحسن بن علي البربهاري الذي يبدو أنه لم يدعم الموقف الجديد للأشعري الذي أعلن عنه في كتابه "الإبانة" أو

Exposición acerca de los principios fundamentales de la religión

الذي ينطوي على إجلال صادق لابن حنبل.

جرى اعتبار كتاب "الإبانة" كما لو أنه النص الذي أظهر فيه الأشعري قطيعته مع الاعتزال. هذا صحيح، ومع ذلك، فهو لم يستطع إرضاء أصحاب الحديث الحنابلة بصورة

تامة. وعقب ذلك، يفترض أن الأشعري ترك بغداد وعاد -ولو خلال فترة معينة- إلى البصرة. وانطلاقا من هناك، جعل كل همّه تصنيفَ مجموعة من الرسائل ترد على المعتزلة والفلاسفة، إضافة إلى رسائل أخرى تجادل بعض المواقف المتشددة للحنابلة، فضلا عن تأليفه لرسائل أخرى تظهر نضج فكره حول مسائل متنوعة [مثل] علم الله، وحقيقة العالم، والسلوك البشري، والفقه، والسياسة...إلخ.

توفي أبو الحسن الأشعري وهو يبلغ حوالي اثنتين وستين عاما (والمصادر لا تتفق حول هذا الأمر) في بغداد. وحسب شهادة المؤرخ الخطيب البغدادي، فقد دفن في جنوب شرق المدينة.

إن موقفه -الذي لم يكن لا معتزليا محضا، ولا حنبلياّ خالصا- لم يقدر له أن يُدرك حقّ قدره في وقته؛ وهو الذي كان منشغلا بالاعتناء بقيمة القرآن والسنة، مع عظيم وعيه بمقتضيات التفكير العقلاني. وهذا ما يفسر أن مذهبه الكلامي الذي يقع على نحو متساو ما بين العقلانية المعتزلية والحرفية الحنبلية، لم يحظ بالنجاح في حينه. ورغم ذلك، فبعد مرور مائة عام على وفاته، يشير الجغرافي المقدسي إلى أن المدرسة الأشعرية كانت تحظى بمكانة عظيمة مماثلة للمكانة التي كانت لدى المذهب المعتزلي.

هل كانت لمواقفه سوابق ما؟ من المناسب الردّ بالإيجاب. يورد ابن النديم المؤلف والمترجم البغدادي -صاحب المتن الواسع الذي بفضله أصبحنا نعرف اليوم كثيرا من المؤلفات المترجمة والمصنفة من لدن الحكماء المسلمين خلال تلك الفترة، وأيضا العديد من المعلومات حول موقف الأشعري وأعماله الفكرية، ولو أنها ليست دائما موضع يقين- اسم أبي الحسن (وللعجب فهو يسوّي فكره بفكر أصحاب الحديث الحنابلة) إلى جانب اسم ابن كلاّب، وهو الأمر الذي سيتكرّر مجددا لدى العديد من المؤلفين.

وقد دافع ابن كلاّب الذي كان معاصرا لابن حنبل، عن الكثير من الآراء التي كانت تُناظِر في أكثر من وجه آراء الأشعري إذا ما تم فحصها بعناية، وقد أورد الأشعري اسمه في "مقالاته" وهو الأمر الذي ينطوي على دلالة عظيمة.

وإلى جانب اسم ابن كلاّب، تنبغي إضافـــة اسم الصوفي المحـــاسبي (المعـــاصر أيضا لابن حنبل)، حيث يورد الأشعري اسمه في مقالاته، واسم القلانسي، الشخصية الملفوفة بغطاء من الغموض نظرا لكونه غير معروف، ومن المرجح أنه عاش بعد القرن الثالث والرابع، وتتلمذ على يد المحاسبي وابن كلاّب. ويجوز أن يكون الأشعري قد تعرّف على أفكار المحاسبي وابن كلاّب بوساطة تعاليم القلانسي الذي من المرجح أن يكون قد درس على يديه الكلام السني مثلما صنع مع الجبائي فيما يخص الكلام المعتزلي.

إن محض الإشارة إلى هذين الاسمين من حيث كونهما روادا للكلام الأشعري يمنع اعتبار فكر الأشعري -كما تم ادعاء ذلك بكيفية غير عادلة- وبخاصة في الغرب، واقعا داخل أو على هامش الحركة الحنبلية. وفي هذا الصدد، فإن أطروحات [آرثر ستانلي] تريطون Tritton و ج. شاخت، تبدو واهية. ونفس الأمر يجري -في حدود كثيرة- على أطروحات ل. غارديه وم.م. قنواتي اللذين يؤكدان من جهة أخرى، وجود العديد من التناقضات بين ما يصرّح به الأشعري في كتاب "الإبانة"، والموقف الوسطي المزعوم الذي يتبناه تجاه المعتزلة والحنابلة، وهي التناقضات التي اعتبراها كثيرة لكي تضفي المصداقية على موقفه المعلن.

ومن اللازم المضيّ أبعد من صفحات "الإبانة"- وهو كتاب موسوم بطابع ظرفي وأغلب الظن أنه لا يخلو من إضافات لاحقة، والانكباب على نصوص أخرى للأشعري ولا سيّما كتاب "اللّمع"، الذي تظهر فيه هذه الوسطية بكيفية واضحة. وهذا ما حدسه أ. ج. وينسك وتوج عام 1953بنشرة ر. ج. ماكارثي لنفس الكتاب. ولقد ألحّ [حمودة] غرابة وم. ألارد على نفس الأمر بكيفية مناسبة فيما عني م. واط وي. طومسون بالوقوف على مكونات العقلانية المقوّمة لفكر الأشعري إلى درجة أنهما صيّراه -وهو الأمر الذي بولغ فيه أيضا- تتويجا للكلام المعتزلي.

ومنذ وقت قريب، سلّطت أبحاث د. غيماريت Gimaret -وكتابه حول مذهب الأشعري يكاد يكون أفضل ما كتب حول متكلم البصرة- المزيد من الضوء على مضامين كتاب الإبانة.

أما بالنسبة للعالم العربي، فينبغي القول إن فكر الأشعري كان أيضا موضع أحكام متباينة. ويتميز مع ذلك حكم الجويني (ت.1085/478) تلميذ الأشعري، الوارد لدى ابن عساكر في "التبيين" حوالي عام 1155/550 الذي يشير إلى أن الأشعري افتتح حقا طريقا وسطا بين العقلانية المعتزلية والحرفية الحنبلية باسم الإسلام السني. ولكي تستقيم تلك الطريق، كان لا بد من ظهور أبي بكر الباقلاني (ت.1013/403) المتكلم الأشعري اللاّمع، والقاضي المتميز صاحب الحظوة لدى السلطان، وموضع التقدير من لدن بعض الوجوه المؤثرة في الأوساط الحنبلية، وفضلا عن ذلك، واضع الأسس التنظيمية لمذهب الأشعري.

كان الباقلاني، مثل الأشعري، من البصرة، وقد وضع مؤلفين أساسيين هما "إعجاز القرآن" و"كتاب التمهيد". كما تجدر الإشارة إلى وجود وجه آخر من وجوه المتكلمين الأشاعـــرة، وهو أبـــو بكر بن فورك، وأبو إسحاق الاسفرائيني (ت.1027/418) وأبو المعالي الجويني، وأبو الفضل الشهرستاني (ت.1153/548) وفخر الدين الرازي (ت.1210/606) ممن نشروا المذهب الأشعري في أراضي الإسلام الشرقية حيث انتهى أبو منصور الماتريدي (ت.944/333) في نهاية القرن III/IX إلى نتائج مماثلة، وإن كانت متصالحة أكثر مع منظور الكلام المعتزلي، منها إلى منظور أبي الحسن الأشعري.

أما في الأراضي الغربية للإسلام، فقد انتشر المذهب الأشعري في البداية بوجه خاص بفضل المذهب المالكي للباقلاني، مع أن أغلبية المتكلمين الأشاعرة كانوا شافعية من حيث انتماؤهم لهذه المدرسة الفقهية أو تلك، كما كان عليه الأمر بالنسبة للأشعري.

وبعد ذلك، حصد المذهب الأشعري أولى ثماره وأكثرها دواما خارج العراق بصفة أساسية. إن تأسيس المدرسة النظامية في بغداد عام 1068/459، واختصاصها بالمذهب الشافعي، حيث درّس أبو حامد الغزالي (ت.1111/505) الـــ Algazel –لدى اللاتين– هيأت للأشعرية أخيرا أسباب الحظوة في العراق على يد السلاطين السلاجقة الذين ساهموا، فضلا عن ذلك، في نشر المذهب الأشعري في العالم الإسلامي.

غير أن الصراعات تواترت بين الأشاعرة والحنابلة، وألحق هؤلاء بقبر الأشعري بعض الأذى. وبعدئذ بوقت طويل، سيصير الشام وفارس من أهم مراكز التعليم للمذهب الأشعري؛ فأما الأول، حيث موطن ابن عساكر، فإن الدفاع المستميت عن المذهب الأشعري، أثمر هناك ثمارا طيبة ودائمة. أما فيما يتصل بنشر المذهب الأشعري في فارس، فقد سبقت الإشارة إلى ابن فورك والأسفراييني والجويني...إلخ. ونشير إلى أن الخراساني أبا الفضل الشهرستاني وسّع المؤلفات المكتوبة للأشعري في كتابه الشهير الملل والنحل أو Libro de las sectas.

ثم أخيرا قام المجادل الحنبلي تقيّ الدين ابن تيمية (ت. 1328/728) وتلاميذه خلال النصف الثاني من القرن VII/XIII بمناقشة حازمة لجدوى الإصلاح الأشعري من وجهة نظر سنّية صارمة. لكن المذهب الأشعري استطاع تجاوز الانتقادات الموجهة إليه. وهكذا صار حتى اليوم، الاختيار النظري الأكثر انتشارا داخل الإسلام السنّي.

ومن جانب آخر، وصلتنا قائمة بالعديد من مؤلفات الأشعري. ولعل أوثقها لائحة ابن فورك الذي ينسب إليه تأليف 96 كتابا مستندا في جانب من ذلك على قائمة للأشعري نفسه أوردها ابن عساكر. وحسب ابن فورك، لم يضع الأشعري قائمة بعناوين مؤلفاته فحسب، بل شرح مضامينها بكيفية مختصرة أيضا.

وكيفما كان الأمر، لا يمكن اختيار قائمة دون أخرى بالقدر اللازم من الاطمئنان نظرا للتعارض الموجود فيما بينها؛ فقد يظهر مضمون نفس الكتاب تحت عناوين عدة. وبالعكس، فقد يجوز أن تكون بعض العناوين محض إشارة إلى أجزاء من نفس الكتاب.

أما فيما يتصل بالمؤلفات التي وصلتنا، فعددها ستة، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وفيما يلي عناوينها مرفقة بمعقوفات تشير إلى عناوينها المختصرة التي عرفت بها بعضها:

[I. مقالات] **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين:**

Las opiniones de los musulmanes y el desacuerdo existente entre quienes rezan

[لله وبين المسلمين أنفسهم] المعروفة أيضا بكتاب في اختلاف مقالات المسلمين

Libro sobre las opiniones de los musulmanes

[II.] **رسالة استحسان الخوض في علم الكلام:**

Tratado sobre la aprobación que merece el estudio de la teología

أو الدفاع عن علم الكلام المعروفة أيضا، حسب ما سبق، برسالة الحث على البحث

Incitación a la investigación teológica

[III. اللّمع] **كتاب اللّمع في الرد على أهل الزيغ والبدع:**

Destellos de la polémica contra quienes desvian e innovan

أو رسالة ضد أهل البدع في الإيمان.

[VI. الإبانة] **كتاب الإبانة على أصول الديانة:**

Exposición de los principios fundamentals de la religion.

[V.] **رسالة كتب بها إلى أهل الثغر بباب من الأبواب:**

Epistola dirigida a la gente de la frontera sobre determinado asunto.

[IV.] **مسألة في الإيمان:**

La cuestión de la fe .

المعروفة أيضا بعنوان كتاب الإيمان:

El libro de la fe.

إن أول من عني بتصنيف المؤلفـــات المحفوظـــة للأشعري بعد الأعمـــال التأسيسيـــة لـــ و. سبيتا W. Spitta و[أوغست فرديناند] مهرن A. F. Mehren ، هو [كارل] بروكلمـــانK. Brockelman الذي تدين له أعمـــال ف. كيرن F. Kern و هـــ. ريتر H. Ritter أما الدراسات اللاحقة لـــ ر. ج. مكارثي R. J. MacCarthy و [ميشيل] ألارد M . Allard و د. غيماريت D. Gimaret ، فقد ساعدت على تبديد بعض الشكوك، والتدقيق في بعض المعلومات التي نتوفر عليها ولو أن أصحابها لم يكونوا دائما متفقين كلما تعلق الأمر بفحص صحة مؤلف من المؤلفات. لكن كل المؤشرات تؤكد أن [الكتاب] I هو في الواقع، مؤلف مكوّن من مجموعة كتب ليس يحيط الشك حول صحتها، على عكس ما هو عليه الأمر بالنسبة لحالة تأليف ذلك المجموع الموضوع تحت نفس العنوان الذي وصل إلينا.

يضاف إلى ذلك أن الجزئين اللّذين قسّما إليهما [الكتاب] I يعود أولهما، على وجه الاحتمال، إلى الفترة المعتزلية للأشعري؛ بحيث إن هناك تيارين من الفكر متعارضان، منهما ما يعكس أفكار الأشعري السابقة على تحوله [عن الاعتزال]، ومنها، على العكس من ذلك، ما يعكس الأفكار التي انطلق منها في فترة انصرافه عن الكلام المعتزلي. ونجد هناك كثيرا من التكرار. وبالإضافة إلى "مقالات الإسلاميين"، يتم فحص مقالات مجموعات دينية أخرى وكذا آراء مفكرين آخرين.

أما بالنسبة [للكتاب] II، فيحوم الشك حول ما إذا كانت هيئته الأصلية توافق تماما النسخة التي بأيدينا الآن. بيد أن صحة تأليفها -التي كانت موضع أخذ ورد بين بعض النقاد- مسلّم بها، ونفس الأمر ينطبق على [الكتاب] III، الذي كان فضلا عن ذلك، موضوع شرحين تقليديين بقلم الباقلاني وابن فورك.

وكما أشرنا إلى ذلك سابقا، فإن [الكتاب] III، ينبغي أن يعتبر -من بين المؤلفات الستة التي وصلت إلينا- أفضل كتاب يمثل نضج الأشعري.

إن حالة تأليفه موضع اطمئنان إلى حدود كبيرة؛ إذ تنتمي إلى المرحلة الثانية من حياة الأشعري [الفكرية]. والحق أن قيمته ظاهرة للعيان، ولكنها محدودة بالنظر إلى صغر حجمه. لكن من الضروري التحوّط كثيرا أمام [الكتاب] VI؛ فالأمر يتعلق بمؤلف ذي طابع انتقالي بين المرحلة الأولى والثانية، ولو أننا لا نشك في نسبته إلى مؤلفه وفق مؤشرات كثيرة، إلا أنه يبدو أنه ينطوي على إضافات من المرجح أنها من صُنع بعض تلاميذ الأشعري. إن الطابع الواضح للنزعة الحنبلية لكثير من العبارات تمنع من اعتبارها عملا كامل النضج.

وأخيرا فإن [الكتابين] V وIV نصان ذوا أهمية أقل إذا ما قورنا بالمؤلفات السابقة، مع أن نسبتهما إلى مؤلفهما صحيحة على وجه الاحتمال. بيْدَ أن بعض الشكوك تحوم حول [الكتاب] V بسبب تاريخ ورد في مقدمته يجوز أن يكون في جميع الأحوال، قد نقل خطأ من لدن النسّاخ.

أما بالنسبة لباقي المؤلفات التي من المفترض أن الأشعري وضعها، فإنّا لا نعرف منها أساسا، إلا العناوين التي نقلها ابن فورك وابن عساكر، وهي كالتالي:

[i] **تفسير القرآن:** Comentario al Corán.

[ii]. **كتاب في متشابه القرآن:**

Sobre los versículos ambiguos del Corán.

[iii]. **كتاب في الأخبار وتخصيصها:**

Sobre las tradiciones profeticas y su atribución.

[vi]. **قول جملة أصحاب الحديث وأهل السنة في الاعتقاد:**

La enseñanza general de los tradicionalistas y los sunnitas sobre lascreencias islámicas.

v.] كتاب كبير في الصفات:

Sobre los atributos divinos, in extensor.

vi.] كتاب في معلومات الله ومقدرته:

Sobre los objetos del conocimiento y del poder divines.

iiv] كتاب في خلق الأعمال:

Sobre la creación de los actos humanos.

iiiv.] كتاب في جواز رؤية الله بالابصار:

Sobre la posibilidad de ver a Dios.

xi.] كتاب آخر في الجسم:

Otro libro sobre el cuerpo.

x.] في المعارف:

Sobre el conocimiento.

ix.] كتاب في شرح أدب الجدل:

Exposición acerca del arte de argumentar.

iix.] كتاب في الرد على المجسّمة:

Refutación de los antropormorfistas.

iiix.] كتاب مسائل على أهل التثنية:

Cuestiones varias contra los dualistas.

vix.] الاستقصا الجامع لاعتراض الدهريين وسائر أصناف الملحدين:

Conclusión acerca de todas las objeciones contra los materialistas y los ateos.

vx.] كتاب في الردّ على الفلاسفة:

Refutación de los filósofos.

تكفي هذه المؤلفات لكي تقدم لنا لمحة خاطفة عما كانت عليه انشغالات أبي الحسن الأشعري ومختلف المسائل التي عالجها في كتبه، وتنوع دلالات هاته. إن دراسة القرآن والسنة النبوية (انظر v،i،ii،iii) وتعاليمهما، وهدي التابعين لها (vi) والقضايا الكلامية (v، vi) والأخلاق والمعاد (vii، viii) والطبيعيات (ix) ونظرية المعرفة (x) والخطابة (ix) والجدل (xii، xiii، xiv، xv) كل ذلك شكل جماع إنتاجه الفكري. وليس هناك على الأرجح على طول وعرض تاريخ الفكر الإسلامي كما أشرت من قبل، عملا كان له الأثر مثلما كان لعمل الأشعري؛ وهو الأمر الذي يجعلنا نقول إن الأوان قد آن لكي نوليه الاهتمام الذي يستحقه في بلدنا هذا. وحسْب هذه السطور المختصرة التّنبيه على ضرورة النهوض بذلك، وعلى التعجيل به.

بيبليوغرافيا:

- الأشعري، أبو الحسن: مسائل في الإيمان، نشر و. سبيتا، لايبزغ، 1876 [في:]

Spitta, W., Zur Geschichte Abū l-Hasan al-Aš'arī, Leipzig, 1876.

- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، نشر هـــ. ريتر، فيسبادن، ط 2، 1953/1382.

-كتاب اللّمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، نشر ر. ج. ماكارثي، بيروت، 1953[في:]

Mac Carthy, The Theology of al-Aš'arī.

-كتاب الإبانة عن أصول الديانة، نشر بشير العيون، دمشق، 1401/ 1981.

-رسالة إلى أهل الثغر، تحقيق محمد سيد كيلاني، القاهرة، 1987 بعنوان أصول أهل السنة والجماعة المسماة برسالة أهل الثغر.

- الباقلاني: البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات، إلخ، نشر ر. ج. ماكارثي، بيروت، 1958.

- ألارد، [ميشيل]: مشكلة الصفات الإلهية في مذهب الأشعري ولدى كبار تلامذته، بيروت، 1965.

Allard, M., Le problème des attributs divins dans la doctrine d'Al-Aš'arī et de ses premiers grands disciples, Beirut, 1965.

- ا. ج. أربري: الوحي والعقل في الإسلام، لندن، 1957.

Arberry, A. J., Revelation and Reason in Islam, Londres, 1957.

- ت. أرنولد: المعتزلة، لايبزغ، 1902.

Arnold, T., AL-Mu'tazila, Leipzig, 1902.

- آسين بالاسيوس، م: خطاطة لقاموس فلسفي وكلامي إسلامي، سرقسطة، 1903.

Asín Palacios, M., Bosquejo de un diccionario de filosofía y teología musulmanas, Zaragoza, 1903.

- الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق محمد فتح الله بدران، القاهرة، 1947-1955، جزآن.

- بافيوني: مذهب الذرية وخصومه في الفكر الإسلامي، نابولي، 1982.

Baffioni, C., Atomismo e antiatomismo nel pensiero islamico, Nápoles, 1982.

- بوعمران، [الشيخ]: مشكلة الحرّية الإنسانية في الفكر الإسلامي، باريس، 1978.

Bouamran, Ch., Le problème de la liberté humaine dans la pensée musulmane, Paris, 1978.

- بروكلمان، ك: تاريخ الآداب العربية، ليدن، ط 2، 1943-1949؛ ملاحق 1937-1942.

Brockelmann, C., Geschichte der Arabischen Litteratur, Leiden, 1943-1949 ; suplementos 1937-1942.

- برانشفيج، ر: "المذهبـــان المعتزلي والأشعري في بغداد"، أرابيكا XI، 1962، ص 345-356.

Brunschvig, R., "Mu'tazilisme et aš'arisme à Bagdad" Arabica, XI, 1962, pp. 345-365.

- كوك، م: العقيدة الإسلامية المبكرة، كامبريدج، 1981.

Cook, M., Early Muslim Dogma, Cambridge, 1981. -

- كوربان، [هنري]: تاريخ الفلسفة الإسلامية، [دار النشر طروطا]، مدريد، 1994.

Corbin, H., Historia de la filosofía islámica, Madrid, 1994.

- كروث إيرنانديث، [ميغيل]: تاريخ الفكر في العالم الإسلامي، مدريد، ط 2، 1996، ثلاثة أجزاء.

Cruz Hernández, M., Historia del pensamiento en el mundo islámico, Madrid, ²1996, 3 vols.

- دوغات، ج: تاريخ الفلاسفة والمتكلمين المسلمين، باريس، 1878.

Dugat, G., Histoire de philosophes et des théologiens musulmans, Paris, 1878.

- غلان، هـــ: بحث حول المعتزلة، عقلانيو الإسلام، جنيف، 1906.

Galland, H., Essai sur les mu’tazilites, les rationalistes de l’Islam, Ginebra, 1906.

- غاردي، ل. و قنواتي، ج: مقدمة إلى علم الكلام الإسلامي، باريس، 1948.

Gardet, L., & Anawati, M,-M., Introduction a la théologie musulmane, Paris, 1948.

- غيماريت، د: مذهب الأشعري، باريس، 1990.

Gimaret, D., La doctrine d’al-A’šarī, Paris, 1990.

- [حمودة] غرابة: الأشعري، القاهرة، 1958.

- هوروفيتز، س: حول تأثير الفلسفة اليونانية على تطور علم الكلام، بريسلاو، 1909.

Horowitz, S., Über den Einflub der griechisten Philosophie auf die Entwicklung des kalām, Breslau, 1909.

- هورتن، م: المشكلات الفلسفية لعلم الكلام في الإسلام، بون، 1910.

Horten, M., Die philosophische Probleme der spikulativen Thelogie im Islam, Bonn, 1910.

- الأنظمة الفلسفية لعلماء الكلام في الإسلام، بون، 1912.

Die philosophischen Système der spikulativen Theologen im Islam, Bonn, 1912.

- ابن عساكر: تبيين كذب المفتري، نشرة القدسي، دمشق، 1347، إعادة الطبع، بيروت، 1979/1399.

- ابن فورك: مجرد مقالات الأشعري، نشرة د. غيماريت، بيروت، 1987.

- لاووست، هــ: المذهب الحنبلي خلال عصر الخلافة في بغداد (855/241-1258/656)" مجلة الدراسات الإسلامية، 1959، ص 67-128.

Laoust, H., "Le Hanbalisme sous le califat de Bagdad (241/855-656/1258)", Revue des Études Islamiques, 1959, pp. 67-128.

- الانشقاقات في الإسلام، باريس، ط2، 1984.

Les Schismes en Islam, Paris, ² 1984

- مكدونالد، د. ب: لمحة خاطفة حول تاريخ علم الكلام المدرسي في الإسلام، عالم الإسلام، 1925) xv، ص 140-155.

Macdonald, D. B., "An outline of the history of scholastic theology in Islam", Muslim World, XV, 1925, pp.140-155.

- [جورج] مقدسي: "الأشعري والأشعرية في تاريخ الإسلام الديني"، دراسات إسلامية XVII-XVIII، 1962-1963.

Makdisi, G., "Aš'arī and Aš'arites in Islamic Religious History" Studia Islamica XVII-XVIII, 1962-1963.

- مهرن، أ. ف: عرض حول إصلاح المذهب الإسلامي الذي ابتدأ في القرن الثالث الهجري على يد أبي الحسن الأشعري واستمر على يد مدرسته، ليدن، 1878.

Mehren, A. F., Exposé de la reforme de l'islamisme commencée au IIIᵉ siècle de l'Hégire par Abū l-Ḥasan al-Aš'arī et continuée par son école, Leiden, 1878.

- ماير، ف: "عرض لكتاب ماكارثي علم الكلام الأشعري".

Meier, F., "Compte-rendu de MacCarthy, R. J., The Theology of Al-Aš'arī", Der Islam, XXXII, 1955, pp. 109-111.

- نادر، [ألبير نصري]: النظام الفلسفي للمعتزلة، بيروت، 1956.

Nader, A. N., Le système philosophique des Mu'tazila, Beirut, 1956.

- باتون، و.م: أحمد بن حنبل والمحنة، ليدن، 1897.

Patton, W. M., Aḥmad Ibn Ḥanbal and the Miḥna, Leiden, 1897.

- بينس، [شلومو]: أبحاث حول مذهب الذرة الإسلامي، برلين، 1936.

Pinès, S., Beiträge zur Islamischen Atomenlehre, Berlin, 1936.

- ريتر، هـ: هراطقة الإسلام، [مجلة] الإسلام، العدد XVIII، 1929، ص 34-54.

Ritter, H., "Muḥammedanische Häresoigraphen", Der Islam, XVIII, 1929, pp. 34-54.

- روزنتال، ف: التصور الإسلامي للحرية، ليدن، 1960.

Rosenthal, F., The Muslim Concept of Freedom, Leiden, 1960.

- روبيو، ل: مذهب الصدفة لعلماء الكلام في الإسلام، الإسكوريال، 1987.

Rubio, L., El ocasionalismo de los teólogos especulativos del Islam, El Escorial, 1987.

- شاخت، خ: "مصادر جديدة لتاريخ علم الكلام الإسلامي".

Schacht, J., "New sources for the history of Muḥammadan Theology", Studia Islamica, I, 1953, pp. 23-42.

شرينر، م: "تاريخ الأشاعرة " في أعمال المؤتمر الثامن للمستشرقين، الجزء الثاني، القسم الأول، ليدن، 1893.

Schreiner, M., "Zur Geschichte des Aš'aritnthums" en Actes du 8 e Congrès des Orientalistes, Leiden, 1893, 2ª parte, sección I, pp. 77-117.

- سبيتا، و: سيرة أبي الحسن الأشعري، لايبزغ، 1876.

Spitta, W., Zur Geschichte Abū l-Ḥasan al-Aš’arī, Leipzig, 1876.

- شتينر، [هنريش]: ، المعتزلة أو التفكير الحرّ في الإسلام، لايبزغ، 1865.

Steiner, H., Die Mutaziliten, oder die Freidenken im Islam, Leipzig, 1865.

- سطروثمان، ر: "الطوائف الإسلامية وكتاب العقيدة للأشعري"، الإسلام، XIX، 1931، ص 193-242.

Strothmann, R., "Islamische Konfessionskunde und das Sektenbuch des Aš’arī” Der Islam, XIX, 1931, pp. 193-242.

- تريطون، أ. س: علم الكلام الإسلامي، لندن، 1947.

Tritton, A. S., Muslim Theology, Londres, 1947.

- فان إيس، [خوسي]: بواكير علم الكلام الإسلامي، باريز، 2002.

Van Ess, J., Les prémices de la théologie musulmane, Paris, 2002.

- واط، و. م: فلسفة وعلم الكلام الإسلاميين، إدنبرة، 1962.

Watt, W.M., Islamic Philosophy and Theology, Edimburgo, 1962.

- فنسك، أ. خ: عقيدة المسلمين، كامبريدج، 1932، إعادة الطبع، 1965.

Wensinck, A., J., The Muslim Creed, Cambridge, 1932; reimpr. 1965.

- ولفسون، هـ. د: فلسفة علم الكلام، كامبريدج (ماساسوتش)، 1976.

Wolfson, H. D., The Philosophy of the Kalām, Cambridge (Mass.), 1976.